المناهج اللغوية فى دراسة الظاهرة الأدبية*

ان غايتنا ـ من الموضوع ـ تتجاوز التعريف بهذه المناهج ورصد مراحلها الكبرى الى نقد نحاول من خلاله ـ في حدود الممكن ـ ابداء الرأي في قيمتها في مباشرة النصوص الادبية وقدرتها على فك مغلقاتها بغية الوقوف على بؤرة التأثير فيها والفوز بما عساه يعيننا على تبين الخصائص التي تخلع على الأدب « أدبيته » .

ولا يعني هذا اننا اصبحنا في غنى عن التعريف والتقديم ، فثقافتنا النقدية اليوم حديثة العهد بكثير من الطرق التي يباشر ، انطلاقا منها ، الأدب في عدد من البلدان الأخرى . اننا اخترنا هذه الوجهة ايمانا بضرورة أن يواكب النقد الاستكشاف ليضبط مدى مساهمة هذه المناهج في اذكاء الوعي الحضاري العام واستجابة لظروف موضوعية ولدها تسرب هذه المناهج الى مشاغلنا بحثا وتدريسا فتباينت المواقف والأسباب شتى : فمن معاد يشهر بالبدعة ويستنفر

* مشاركة المؤلف في ملتقى اللسانيات الذي انعقد بتونس سنة ١٩٧٩ واشرف عليه مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية .

النفوس المؤمنة للجهاد في سبيل المقاييس النقدية القديمة التي تخرج عن اساليبها نقاد « لا يشق لهم غبار » ونصير ينزه ويبشر ظننا انه وجد « مفتاحا » يريحنا من شقائنا بأدبنا وشقاء تلامذتنا وطلابنا بدروسنا .

ان الانتباه الى اهمية الجانب اللغوي في معرفة النص الأدبي وتحديد خصائصه النوعية قديم ، فلقد قامت الممارسات النقدية الاولى - في قسم كبير منها - على لغة النص طريقة لتقريبه من الافهام والاذواق : ومن الحضارات ما قام النقد فيها - اذا استثنينا بعض القضايا الثانوية ، على البعد اللغوي أساسا ، ولعل أحسن نموذج لذلك النقد العربي القديم باعتبار البلاغة - وهي الجهاز المفهومي النقدي الوحيد الذي ولدته ممارسة العرب للبعد الفني في النص الادبي - نشاطا لغويا قبل كل شيء .

ولكن الفرق بين تلك الطرق في تعليق الأثر الأدبي بلغته وهذه التي نروم الحديث عنها جوهري عميق قد يصل الى القطيعة بالنظر الى الأصول التي تتأسس عليها الطريقتان أو المنهجان : فمنذ نهاية القرن الماضي ظهرت بوادر تبشر بتحولات كبرى في المعرفة البشرية : وبدأ الانسان - تحت ضغط النزعة « العلمانية » يعيد النظر في الموروث « المعرفي » ويراجع مراجعة جذرية الأصول التي على أساسها وصفت الظواهر وصنفت وربط بين مختلف اجزائها . وكانت العلوم اللغوية سباقة الى الاستفادة من هذه المراجعة الاصلية

وصاغت من النظريات وأوجدت من المفاهيم ما مكنها من قفزة عملاقة خلصتها من ربقة علوم اخرى ونفضت عنها غبار نظريات وطرق في التحليل والوصف لعلها مسؤولة عن سيرها البطيء قبل ذلك ، بل لقد غدت ، هذه العلوم اللغوية ، وهي في مصطلحهم « الألسنية » أو « علم اللغة » طموحة رائدة تمد العلوم الاخرى ، صحيحها ونسبيها ، بما استقام لها من مناهج وفازت به من طرق في التحليل والتعليل « بديعة » .

فالفرق بين الممارستين يكمن في النظرية اللغوية ذاتها التي تدعم تلك العملية النقدية وتقع منها موقع الارضية .

ان الألسنية ، وقد تأسست أصولها وتبينت اتجاهاتها الكبرى في منتصف هذا القرن ، ولدت صلتها بالأدب مذهبا في ممارسة النص جديدا اطلقوا عليه « الأسلوبية » أو « علم الأسلوب » ترمي من ورائه إلى احتواء الكلم الأدبي ، وجعل النقد فنا من أفنان شجرتها التي تفرعت بشكل يدعو الى الدهشة .

وقد قامت ردود فعل على طغيان الاحكام المعيارية الذوقية في تقييم الأدب وتغريق النص في جملة الاهتمامات الحافة واقتصار الدراسة في أحيان كثيرة على ذلك .

فكان من مقاصدها « علمنة » الدراسة الأدبية والنزوع بالأحكام النقدية ، ما أمكن ، عن الانطباع غير المعلل ، واقتحام عالم الذوق وهتك الحجب دونه واكتشاف السر في

ضروب الانفعال التي يخلقها الأثر في متقبله .

وقد كانت طرق تشكل الظاهرة الأدبية والعالم اللغوي الذي يحويها حجر الزاوية في بلوغ تلك المقاصد فانبنى عملها على جملة من المنطلقات اختلفت طرق التعبير عنها باختلاف النزعات والتيارات . من ذلك قولهم ان جوهر الأثر الأدبي لا يكمن في مضمونه وانما في اللغة التي تحمله فهو ـ نتيجة لذلك ـ ليس ترجمة عن تجربة بل تحقيق لامكانيات التعبير الكامنة في اللغة فتحدثوا عن النص المقدر والنص المحقق واعتبروا هذا الأخير مجرد امكانية من جملة امكانيات تتعاوض ، وهم في ذلك يجرون على الأدب ما أجراه علماء اللغة في تفريقهم بين الكلام ، واللغة واعتباره فعلا من هذه القدرة الموجودة فينا بالقوة ، ويرمون الى دَكِّ الحواجز القائمة بين مختلف الآداب الانسانية والوصول الى نقطة البدء التي تمثل أصلا لهذه الفروع المختلفة ايمانا بأن بؤرة الفن واحدة وان اختلفت وسائل التعبير عنها ، وعملهم هذا يشبه الى حد كبير ، من حيث القصد على الاقل ، عمل اللغويين في البحث في نطاق العائلات اللغوية عن اللغة الأم وامكانية ارجاع هذه العائلات الى أصل واحد .

وقد علقوا كل ذلك ، كما سبق أن أشرنا ، ببنية النص اللغوية باعتبار اللغة مادة الأدب لذلك اصروا على أن يعرف النص الأدبي انطلاقا منها وان تحدد « مواصفاته » تبعا لها .

هذه جملة من الأسباب ربطت الأسلوبية بالألسنية ربطا وثيقا حتى أصبحت تعرف بأنها « المقاربة الألسنية للنص الأدبي » فنسى الناس كثيرا من اقسامها الأخرى كالأسلوبية « الغرضية » والأسلوبية « التكوينية » ...

وقد قوى هذا الارتباط ودعمه عدم استقلالها بمنهج وبقاؤها في مدار ما سطرت الألسنية ولنا في هذا الأمر عودة في محل آخر من هذا البحث .

والكلام عن القضايا النظرية التي تطرحها الأسلوبية قد يطول اذ يمثل جانبا هامّا من النشاط النقدي منذ ما يزيد عن نصف قرن .

ان غايتنا كما أشرنا في بداية هذا الحديث ـ وجه آخر من القضية وثيق الصلة ، لا محالة ، بالجانب النظري ويتمثل في التساؤل عن الاجراءات العملية لهذه الطريقة في تقديم الكلم الأدبي وفي معرفة ما اذا كان الأسلوب ، وهو مقوم الأدبية يمكن اخضاعه لأحكام موضوعية تسمح بفك اللغز القائم منذ وجد الأدب فتفسر تفسيرا علميا عمليات يدور مجملها في اعماق الذات الانسانية وفي أدق بؤرة من بؤرات احساسها وروحها الفنية ؟ نريد ، بعبارة أخرى ، ان نسأل هذا السؤال : هل الاسلوبية التطبيقية ممكنة في هذه المرحلة التي بلغها البحث ؟

نود ، قبل الاجابة أن نطرح ملاحظتين :

أ) ان الممارسة التطبيقية ، من وجهة كمية ، قليلة بالقياس الى الابحاث والمجادلات النظرية وأغلبها حديث العهد ، وهي ، من حيث النـوع ، متواضعـة لا تعدو أن تكـون محاولات لم يصدر عنها ، فيما نعلم مقررات في التحليل حاسمة سواء تعلق الأمر بكاتب أو مدرسة أو عصر .

ولعل في هذا ما يدل على استعصاء الخلق الأدبي على المقررات النظرية .

ب) ان الاسلوبية تقوم بدور المنبه والحافز وليست ثبتا بحلول نفض باستعماله قضايـا الأدب ، فقد جـاءت تشير الى الثغرات الكامنة في النشاط النقدي السابق ولم يخلع عليها اصحابها قيمة المنهج ولا ادعوا انها مفتاح سحري ، فهم على ما يقول أحد اعلامها ، أشاروا عندما اطلقوا هـذا المصطلح في مطلع القرن ، الى مساحة شاسعة شاغـرة طرفاها اللغة والأدب ، عمرت البلاغة في وقت من الاوقات جانبا منها شغر بسقوطها وافلاسها .

فليس من الانصاف مطالبتها ان تهتك ، دفعة واحدة ، كل الأستار التي تحجب عنا النوعيـة الأدبية . ان اهم ما فيها ، في رأينا ، أنها اقضت مضاجع النقاد . ان صح التعبيـر ، وشككتهم في كثيـر من المسلمـات المنهجيـة وحفزتهم ، بالتالي على تجاوز قصور هذه المناهج التي كانوا

يعتقدون في حكمتها وصلاحها . ولا يخفى على أحد ما لهذا العمل من أهمية ولا ينقص من قيمته ان لا يقدم كل مرة ، بديلا عما نقض .

وهي مع ذلك ، تخطت هذا الدور السلبي وأماطت اللثام ، الى حد ، عن مقولات في معالجة الأدب كان النقاد الى وقت قريب يجهلونها أو يتجاهلونها ، ومن أهم ذلك وقوفها على بعض أسس عملية الخلق الفني بابرازها أهمية بنية النص ونظامه اللغوي والكيفيات التي تتماسك بواسطتها الوحدات داخل هذا النظام وتعبر فتضفي على الادب « مواصفاته » ، وقد أمدت النقاد بجملة من المفاهيم يمكن أن ننعتها ، بدون مبالغة ، بالثورية كالاختيار والعدول والسياق الأسلوبي ، والمعنى المصاحب ، واللغة والكلام والقراءة ...

وأهم من ذلك كله لفتها النظر الى الشبكة المعقدة التي يجب أن ينزل في نطاقها النص الأدبي أو الكلم الأدبي بصفة عامة ، فالأثر لم يعد يحلل على أساس كونه تجربة الكاتب فقط ، فلقد أصبحنا اليوم أكثر حساسية لأطراف اخرى يشملها النص أو الأثر وان لم تبن لأول وهلة كالقاريء والمرجع والسنة والمقام فتعددت وظائف النص وتداخلت وأصبحت الوظيفة الأدبية أو الاسلوبية ، وقد علقوها باللغة في النص غاية ، جانبا من مضلع .

كما ألحت على ضرورة تجاوز مقولات ، رشحت من فلسفات قديمة ، ثبت اليوم عدم جدواها كالفصل بين

الشكل والمضمون وما ينتج عنه من آثار علمية وبيداغوجية سيئة ، وأقرت بدلا عن ذلك وحدتهما وتماسكهما مقتدية بما أقره الألسنيون من ترابط الدال والمدلول حتى شبهوا ذلك بوجهي الورقة .

وفي هذا المجال دقق بعضهم النظر وعمق الفكر فاستطاع ان يفرقع هذه العناصر الى مكونات أصغر وبينوا بذلك أنها ليست بسيطة كما كان يظن ، وفتحوا لعلم المعاني آفاقا في البحث جديدة . ولعل أشهر الانماط ما جاء من علماء اوروبا الشمالية انطلاقا من مباحث « يلمسليف » في اللغة .

ونذكر هنا على سبيل المثال نموذج « سرنسن » .

١ ـ التعبير (العبارة)	مادته : اللغة	
	شكله : الاسلوب	
٢ ـ المضمون	شكله : الأغراض وترتيب الأنواع	
	مادته : الأفكار والعواطف	

وكالجري وراء حقيقة سرمدية يتضمنها النص يعد النقاد العدة للفوز بها دون غيرهم ، ويكلفون أنفسهم ما لا طاقة لها به حتى يكتشفوا ما أراد « المتنبي » أو « هيجو » أن يقول : ان النص في نظر علماء الأسلوب مكتنز صامت يكتسب معناه من قارئه ومن تجربته الخاصة مع اللغة ، باعتبار أن لكل

شخص من المجموعة اللغوية الواحدة علاقة ببعض جوانب اللغة تختلف عن الشخص الآخر . فأقروا بذلك فكرة القراءة وامكانية تعددها خاصة أن لغة النص الأدبي تدل بكيفيات تختلف عن الخطاب الصريح الذي لا يتجاوز وظيفة الابلاغ .

نجد صدى لكل هذه القضايا في اعمال تطبيقية مفيدة شملت أغلب الأنواع الأدبية المعروفة : الشعر ، القصة ، الخرافة وقد كان أغلبها نتيجة اعمال جماعية أو ندوات . ولا يكاد يخلو كتاب يتصل بهذا الموضوع من قائمة بأسماء تلك الاعمال ، كما يطيب لنا أن نشير هنا الى محاولات عربية اللغة والمضمون انجز بعضها في تونس ورأينا بعضها الآخر في المجلات الأدبية التي تصلنا عن المشرق .

ان ايماننا عميق بضرورة استثمار هذه المراجعات المنهجية وما أفرزته من مقولات اصبحت معالم بارزة في المعرفة الانسانية اليوم بغية ان يصبح النقد الأدبي اختصاصا لا يقل دقة وصرامة عما سواه ، فيتخلص من المتطفلين الذين لا عدة لهم الا رصف الكلمات وتحبير المقالات عن جهل وارتجال . وان يساهم الأدب مساهمة فعالة في اثراء المعرفة الانسانية ولا يبقى ، على هامش العصر ، ضربا من التسلية والمتعة يروّح به « العاملون » عن انفسهم ويطعنون في جدواه ويضحكون من القائمين عليه متى سنحت الفرصة .

ان هذه الأسس « المعرفية » الجديدة تنفخ ، من جهة أخرى ، في علاقتنا بتراثنا روحا جديدا وتسمح بترصد عناصر المعاصرة فيه بقراءته على هدى من هذه المفاهيم المستحدثة فنستغل جانبه « المعقول » ونحرك قوى الدفع فيه .

كما تهيئنا علميا ومنهجيا الى اعادة النظر في تقييمنا لعصورنا الأدبية . فلقد اجمعنا ، أو على الاصح أجمع غيرنا وأذعنا ، على دفن أطول فترة من تاريخنا الأدبي : دفنّا الجسم دون الرأس والذنب وعلقنا ذلك بكلمتين غلقت دوننا المنافذ الى ذلك ، هما كلمتا « الانحطاط » و « الجمود » . ان مراجعة جدية للمقاييس التي رسمت ، على أساسها ، حدود هذا التقسيم لكفيلة برفع الغبن عن تجارب أدبية وفنية هامة .

ولكن رغم كل هذا ورغم استطرافنا ما وقعنا عليه من أعمال تطبيقية استطاعت بصرامة المنهج فيها وحدة النظر ان تحرك في نصوص ، معروفة في الغالب ، من عناصر الدلالة ما لم يكن يخطر على بال ، نرى من الامانة العلمية أن نشير الى كثير من الصعاب التي تقف دون « الاسلوبية التطبيقية » .

أولى تلك الصعوبات وأهمها تتصل بموضوع العلم كامنة فيه : فالأسلوب معطى يستعصى على التحديد والضبط اذ هو نتاج عمليات معقدة متعاضلة لا تنفك احداها عن الاخرى

إلا عن صعوبة نادرة ومخاض عسير . فهو طريقة الكاتب في الانتقال بفنه من الانفعال الفسيولوجي واللذة الحسية الى تشكل علامي ظواهري يستقطب دلالة الحضارة ويصل الكون بالتاريخ . انه مسار في اتجاهين ما بين « النص الوهم » و « النص الظاهـرة » في المعنى الواسـع لكلمة النص .

ويكشف النظر في مختلف التعريفات المقترحة قديما وحديثا ، وهو أمر هين من كثرة الدراسات في الموضوع ، عن هـذه الحقيقة الهـامة : « ان الاسلـوب يتجـاوز حـدث التعبير » . واكثر الناس اغراقا في الشكلانية وامتعاضا من اعتبار الابعاد الميتافيزيقية في تقييم الظواهر الادبية عجزوا عن قطع صلة الأسلوب بما وراء اللغة او اضعافها ولم يستقم لهم ان يرجع النص الى نفسه حلقة مغلقـة لا تستعين بموجودات من خارجها .

لذلك لا تبرز قيمة الاثر ولا يحدد أسلـوب كاتب اذا اقتصرنا على وصف معجمه ونحوه وصـوره مهما أوتي الوصف من دقة وشمول ، كذلك لا يكفي لتجلية النوعية والتفـرد ان نقيس نظام الأثـر على النمـوذج النظـري لاستخراج اصناف « المعدولات » .

والسبب ان وجهة النظر هذه تتأسس على خطأ في التقدير « الأصولي » وتجاوز في المنهج . فالذي يربط قيمة الأثر وجوهر الاسلوب بالنص الظاهرة ينطلق من سببية مباشرة

ساذجة في ربط العلامة بمرجعها ، ويثق ثقة تامة في قدرة اللغة على استيعاب ما يعتمل في نفوسنا كتّابا وقراء . وليس صعبا ان نبين تهافت هذا المنحى في التقدير فلقد انتبه النقاد منذ القديم ، بحدة وعي تثير الاعجاب ، الى انحسار عالم اللغة في عالم الفكر وأشاروا ، على مذاهبهم الى معاناة الانسان يتمزق بين انطلاقة خياله وقدرته على ان يدرك بالتوهم والحس عوالم لا تحد ، وبين قيود ترده اليها منزلته البشرية فلا يأبق منها .

فاللغة مؤسسة تتطلّب ممارستها الوعي بحدودها اذ تقوم على تناقض اساسي : هي وسيلة الانسان في التعبير أوجدها لينزل المجهول الى مرتبة المعلوم ، وينتصر على السر في الكون وفي ذاته ويصارع بها قوى النسيان والتكتم وجعل ما وراء الطبيعة معطى طبيعيا موضوعيا .

ولكنها ، في الوقت نفسه ، سجن يحد بصفة مأسوية من طموحه في المطلق فلا يبلغ من ذاته الا ماتسمح هي به . فكل حضور لغوي متعلق به غياب ودلالتها (اللغة) غائبة لا تقل شأنا عن دلالتها حاضرة .

فالنص ، أي نص تحقيق شيء من شيء لذلك وجب ان ينظر اليه من الزاويتين جميعا . فتتحول اللغة فيه الى جهاز علامي مزدوج المرجع أحدهما معدوم والآخر موجود . ويتحول عنصرا الدلالة فيها الى دال ومدلول غير مجسم .

وان أهم « الأغراض » في بعض الآداب اليوم غرض غربة الانسان لغويا للقطيعة ما بين ما يحس وما تمكنه منه وسيلة التعبير : والتجارب المختلفة في تكسير أنماط الكتابة المعروفة : تدل ، من جملة ما تدل ، على اصرار الانسان على تجاوز العلاقات التواضعيـة التي اقمناهـا بين الأشياء والكائنات وتمخضت عنها رؤيتنا للعالم .

وقد حاول الانســان ، منذ القــديم ، عملية التجــاوز المذكورة بطرق شتى : فلقد تمكن من توسيع الجهاز العلامي حتى يستعين على تحقيق بعض ما يصبو اليه في التعبير مما لا تؤديه اللغة ، واهتدى الى فلسفات تقوم على الصلـة المباشرة بين الذات والموضوع حتى لا يكون الادراك في حاجة الى وسيلة من اللغة . بهذا تفسر جانبا من جوانب الفلسفات الروحية ، والتسمية في هذا النطاق هامة ، التي قامت قديما وحديثا « صوفية » كانت أو « حدسية » ولنفس السبب في رأينا وجدت تلك المجموعة الهائلة من السلوكات التعبيرية التي يحل الرمز فيها محل العلامة .

فلعل ، الاسلوب ، اذن . ليس الا محصلة الصراع بين تناقضات الانسان : والفن ليس الا ما يناله على حساب المطلق ليقترب شيئا فشيئا من الازلي أو ان ينزل الازلي الى مرتبة الانساني ـ على حد تعبير مالرو .

كما يخلط القائلون بتعلق الأسلوب بالبنية اللغوية بين جملة من المفاهيم الرئيسية ، في مقدمتها الفرق بين لغة

الكاتب وأسلوبه وهذه نقطة دقيقة لانها تقع على حدود الفن والجمال ويتطلب ابداء الرأي في شأنها التذكيـر بفكرة سلفت ، ان دراسة الأسلوب ترمي بالاضافة الى ابـراز الخصائص النحوية واللغة المميزة لكاتب أو لأثر الى اجلاء عناصر الجمال فيها والا كانت الاسلوبية علما غير ذي موضوع باعتبار الوصف اللغوي من مشمولات الألسنية ولأنه لم يثبت لدينا الى الآن ان المنهج اللغوي في دراسة الصورة الشعرية أحسن المناهج . وأخيرا لأن الاسلوبية من اللغة والأدب تريد أن تفسر وظائف هذا بمنهج تلك .

ان سلمنا بهذه المقدمة انتهينا الى أن من علق الأسلوب بالبنية اللغوية اعتبر كل حدث لغوي رشح من قياسه نمط النص على النموذج النظري حدثا اسلوبيا وما عدا ذلك خلوا من هذه الشحنة .

وهذا المنطق غير مقبول للأسباب الآتية :

ـ ليس كل « عدول » مولدا لطاقة تعبيرية وشحنة جمالية لا ولا كل انضباط لغوي خلوا منها . ثم ان سلمنا بأن الاسلوب يقوم على « العدول » الخلاق فهذا لا يجنبنا الصعوبات العملية والمنهجية التي تنجر عن ذلك : فما هو المستوى من اللغة الذي نعتد به في هذا المقام ؟ وتزداد الأمور تعقدا بالنسبة الى لغة كالعربية يختلف مستوى المنطوق فيها عن المكتوب الذي يحشر جله فيما يطلق عليه « اللغة الأدبية » . فتتكاثر أطراف المعادلة وتتشعب مسالك الدراسة لتواجد

المستويين ولضرورة البحث في نطاق المستوى الواحد ، وهو هنا المستوى المكتوب ، عن سلم تفاضلي .

بل نذهب أبعد من ذلك لنتساءل ولو على سبيل الحيرة العلمية فقط : هل للنموذج اللغوي وجود فعلي ؟ وهل تتحقق انماطه في مستوى من اللغة يكون القصد الفني فيه منعدما ؟ ألم يحن الوقت اليوم أن نتساءل عما اذا لم يكن الفصل بين ما هو داخل في النموذج وما هو خارج عنه أي الفصل بين النحو والبلاغة مواضعة استدعتها ظروف تاريخية وحتمتها ضرورات منهجية ؟ نكتفي هنا بطرح هذه الاسئلة ونرجىء الاجابة عنها الى اعمال أخرى نحن بصددها .

ـ ان هذه الطريقة في النظر ، لكونها تنحصر في البعد الآني ، لا تمكن من التمييز بين الموروث والمبدع أو هي لا تمكن من ادراك جوهر التحول الذي يطرأ على ذلك الموروث . فاذا سلمنا ـ كما يقول أحد الأسلوبيين ـ بأن اللغة العامة تنحو الى التعابير النموذجية أي تقوم على ضرب من الآلية في الاستعمال اتصفت لغة الأدب بتـوظيف فني للغة بكسر انماطها التواضعية . لكن لابد من الانتباه الى ان ذلك يقع حسب طريقتين :

أ) العدول عن النموذج اللغوى .

ب) العدول عن المقاييس الأدبية السالفة .

ومن ثم لا يتسنى شرح البنية اللغوية للأثر الادبي الا بتكامل الدراسة الآنية والدراسة التاريخية ويكون التحليل

الآني غير كاف لتصوير جوهر اللغة الادبية .

لذلك تقف امام كل بحث اسلوبي تطبيقي اليوم مشكلة التقييم لأنه يصعب ان نميز بين ما هو للكاتب وما هو لغيره ثم خاصة أن نفرق في نطاق ما هو للكاتب بين المؤشر الاسلوبي وبين الطريقة في الكتابة . فالتقديم والتأخير ، مثلا ، ليسا قيمة اسلوبية مطلقة وأول من عليهم أن يقولوا بذلك علماء الأسلوب مخافة ان يتحول علمهم الى مجموعة من القوائم فيصيبه ما أصاب البلاغة في فترة من فتراتها .

فالوظيفة الاسلوبية وظيفة سياقية موضعية وعلى الدارس ان يكشف السر في ان نفس الحدث اللغوي يكتسي أهمية خاصة في حيز ثم يفقدها في حيز آخر من نفس الأثر . لهذا السبب انبنت بعض الاتجاهات الاسلوبية على مفهوم السياق الاسلوبي « استنكافا من تعليقه ببنية الجملة » .

هكذا وصلنا الى بعض القضايا المنهجية التي تطرحها دراسة الاسلوب . وفي حديثنا السابق اشارات الى موقفنا من السؤال المنهجي الأول في هذا المجال . هل يستقل علم بموضوع اذا لم يستقل بمنهج ؟ وهل يمكن للاسلوبية ان تحقق غايتها من الظاهرة الادبية باستعمالها منهج علوم اللسان ؟

ليس في وسعنا ، بصراحة ، ان نجيب على هذا السؤال الخطير جوابا مقنعا ومرد ذلك ذوبان الحواجز التي كانت تفصل العلوم عن بعضها وتحصر مناهجها ، اننا مـذ

ما يقرب من ربع قرن نشاهد امتزاج المناهج وتداخل العلوم .

فكأن الانسانية في تصنيفها للعلوم تعود الى البدء وترد الفرع عن الاصل الى الاصل . ومرده ايضا طغيان الالسنية على كثير من الاختصاصات ، وكونها منطلق جملة من اهم المناهج اليوم حتى لكأنها غدت أصل كل تلك العلوم وفلسفتها . كذلك الانتقال بدراسة الأدب من الاسلوب الى الاثر الادبي ككل وعوضوا الاسلوب في مصطلحهم بالكتابة فتحدثوا عن « الكتابة في الدرجة الصفر » وتوزع البحث الأدبي الى تيارات كالانشائية والسيمائية وفي ذلك اقرار بأن الاهتمام بالنص كله ومحاولة الوقوف على طرق تماسك عناصره وكيفيات دلالتها باعتماد المنهج البنيوي أساسا في ضبط مقومات الأدب من الاقتصار على الاسلوب وهو عندهم شخصي ضارب في اعماق ذات صاحبه ، حتى قالوا انه من « ميثولوجيا » الفرد ودفق من روحه بينما تتأسس الكتابة على القصد ومن هنا قالوا بامكانية تشريح الكتابة والغوص في اعماق القوى التي تحركها وبصعوبة السيطرة على الاسلوب وأصبح همهم البحث عن « أدبية » الاثر لا عن اسلوبه .

لهذه الاسباب نكتفي ببعض الملاحظات مساهمة في اثارة النقاش . لا جدال في ان الادب ، ككل خطاب ، مصنوع من اللغة وليس له من وسيلة سواها يحقق بها نوعه وغايته ، ومن هنا يكتسي وضعا خاصا لأنه يفترض في تلك المادة ، وهي

مادة دالة بذاتها قبل استحواذه عليها ، على حد تعبير بارط ، ان تتحول عن دورها الأصلي الى دور آخر توظف فيه توظيفا فنيا مسايرة لوظيفة الادب التي تختلف عن وظيفة التواصل العادي ، فاللغة تدل في الأدب بكيفية من أهم خصائصها تراكب السنن اللغوية التي بدونها يستحيل ذلك التحول شرط التّوظيف الأدبي للغة وضعف الصلة بين العلامة ومرجعها وانطماس « الشفافية » التي تربطهما في الابلاغ العادي حيث نهتم بالاشياء ذاتها بينما نهتم في الادب بالنص . فالاهتمام بالبنية اللغوية ضروري وكل مباشرة للنص وجب ان تنطلق من لغته باعتبارها وسيلة الأدب وغايته والنظام الذي يصرح أو يوحي بكل مضامينه .

وهذا لا يناقض ما سلف . نعم ، على الأدب ان يتجاوز شكله لكن ذلك لا يعني اهمال ذلك الشكل أو عدم جدواه في تبيّن الخصائص الفنية في النص .

والقول بأن اللغة مادة الادب أمر بديهي لكن السيطرة على الامكانيات التي تتشكّل حسبها وما يصيبها من تحولات يثير منهجيا جملة من القضايا . فقد ذهب ـ سرنسن ـ الذي استعرضنا نموذجه في البداية الى « ان القول ان اللغة مادة الادب ينتج ان اللغة لا علاقة لها بالأدب نفسه خاصة شكله الذي لا يستقيم الا من تحول اللغة عن وضعها لتفرز الأسلوب . فكأن الأدب يصبح ضربا من اللغة تنفصل في

انماطه التعبيرية والتركيبية . فالأدب لغة اللغة أو شكل الشكل » .

ولذلك شككوا في جدوى المنهج اللغوي وقالوا بضرورة استقلال التحليل بمنهج يراعي هذه المعطيات النوعية ونادوا بألا يكون النقد فرعا عن الألسنية . كما ألحوا على ان يبقى بنيويا باعتبار البنيوية منهجا لا يلتصق ضرورة بالألسنية . ومن لم يناد منهم بالانفصال التام بين المنهجين دعا الى الحذر في استعمال المناهج اللغوية التي لا يمكن ان تكون الا عملا تمهيديا يساعد على ضبط مادة البحث ليس الا .

كما ان استعمال المنهــج الألسني يحملنا عــلى تبني منطلقاته ونتائجه في « اقسام الكلم » وهو تقسيم لم يهتد الى قسم أكبر من الجملة أساسا للوصف وقاعدته . ولسنا واثقين ان هذا السلم كاف لدراسة خصائص الكلم الأدبي وادراك خباياه . اننا لا نستطيع دفع ذلك اليوم أو تبديله لكن علينا ان نعي ان هذا يبقى لغويا ما لم نتمكن في يوم من الأيام « من اقامة » نحو الكلم الأدبي تقسم على قاعدته النصوص الى وحدات تتلاءم وروحها .

هذه بعض الخواطـر اردنا منهـا ان نلفت النظر الى المخاض الفكري الهائل الذي نحياه عسانا نشـارك فيه مشاركة جديدة قد تهدينا الى منحى طريفٍ يتبوأ به نقدنا مكـانة مـرموقـة ويستقل عن تبعيـة المدارس النقـدية الكلاسيكية غربا وشرقا .

ويطيب لنا ان نختم حديثنا هذا اليكم بهـذه النظرة التفاؤلية التي نقلناها عن أحد النقاد الغربيين المعاصرين :

« ان الاسلوبية لا تقوم علما صحيحا الا يوم تتمكن من تحويل المعيارية الى احكام موضوعية ولعل ذلك قد يتم لها في يوم من الايام اعتبـارا بما وقـع للألسنيـة نفسها فقـد استطاعت المدارس البنيوية أن تحول ما كان لا يعدو الحس اللغوي الى وجود لغوي يفسر تفسيرا علميا » .

●●●

٣ ـ فى النقد التطبيقى

« قلب الشاعر »
لأبى القاسم الشابى
محاولة وقراءة

« قلب الشاعر »
لأبى القاسم الشابى
محاولة وقراءة

يتأكد في مطلع هذه المحاولة ابداء بعض الملاحظات المنهجية ننزل بها العمل في الحيز الذي ارتأيناه له ليعرف القارىء مداه وحدوده .

وأولى الملاحظات التساؤل عن سبب الاهتمام بالشابي دون غيره من الشعراء .

فهل في هذا التوجه اقرار برأي سائر لهجت به كثير من الاوساط النقدية العربية ومؤداه ان الشعر التونسي الحديث والمعاصر لا تقف فيه على تجربة شعرية جديرة بأن تعد من جيد الشعر وخالصه الا الشابي . ليست هذه قناعتنا وان كنا واثقين من ان ابا القاسم علامة بارزة في مسار الشعر التونسي والعربي وتجربة شعرية متميزة . بل لا نبالغ ان قلنا انه من شعرائنا القلائل الذين استطاعوا - لعمق التجربة وصدقها - ابتناء ما يسمى اليوم بـ « العالم الشعري » أو « الفضاء الشعري » .

ان ما دفعنا الى الاهتمام به مشاغل التدريس والبحث ومقتضيات القراءة . فلقد كلفنا ، من سنوات بمواكبة